(سياسة التعليم في مصر)

١ — هل للتعليم فى مصر خطة مرسومة وسياسة جلية تتصل حلقاتها وتتجه جميعا الى غاية معينة ؟ وهل هذه الانظمة التعليمية القائمة بيننا نتيجة فكرة عامة انزلت كلا منها المنزلة الملائمة له وجعلت عمل كل منها لعمل الآخر وعمل الجميع كفيلا بتحقيق آمال البلاد وسد حاجاتها ؟ هذه اسئلة ترد على الخاطر كلما سمع الأنسان تلك الصيحات العامة التى تتجاوب بها جوانب البلاد طالبة نشر التعليم مستحثة الحكومة على تعميم العرفان

لقد بدأت الحكومة تخرج الى حيز العمل فكرة تعميم التعليم التى نص عليها الدستور ففتحت مائة مدرسة اولية وزعتها على قرى متعددة فى نواحى مختلفة ولا بد أنها تحت ضغط البرلمان ستضاعف هذا العدد فى الأعوام المقبلة وستجد فى كل خطوة تخطوها لزيادة عدد هذه المدارس ألسنة تلهج بالثناء وأقلاما تمطرها فى الصحف وابلا من الشكر . ولكن كل ذلك لن يحول دون الاصطدام عاجلا بالحقيقة المرة وهى أن ماتبنيه الأمة من الآمال على ذلك وماتقدره من الخير والنفع سيظل بعيدا غير مدرك . ذلك اننا نسير فى هذا السبيل على غير هدى ونبنى على غير أساس أو على أساس ضعيف معتل

والهدم افضل من بناية مصلح يبنى على الأسس العتاق جديدا

٢ — تعالوا ننظر الى مايجب أن تكون غاية الحكومة من

التعليم ونحدوها بقدر مايهدى اليه النظر البسيط المجرد . ثم ننظر الى أى حد تحقق الأنظمة الحاضرة ماأريد منها .

أن الحكومة يجب أن تجعل نصب عينها أن تكوّن من ابنائها مواطنين صالحين . وأن تكفل وجود كفاءات ممتازة متنوعة فى البلاد وأن تهيء للجميع جوا صالحا للعمل والانتاج لأقصى حد مستطاع . ويجب أن تكون العناية موزعة بين هذه الاغراض بما يتناسب مع اهمية كل منها وبما يتحقق معه توازن قوى الدولة وعدم طغيان جانب منها على الجوانب الاخرى

مهمة الحكومة فى التعليم اذن تلخص فيما يأتى

اولا — تثقيف ابناء الشعب تثقيفا عاما يكوّن منهم مواطنين صالحين

ثانيا — توفير وسائل الاستزادة والحذق للنابغين من ابناء الشعب حتى لاتقتل استعداداتهم الممتازة وتحرم البلاد ثمراتها

ثالثا — ضمان وجود انظمة متعددة تكفل وجود سائر الكفاءات الضرورية لنهضة البلاد نهضة متزنة وعدم افتقارها فى أية ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية الى عضد خارجى عنها

ويخيل الينا أن « المدارس الاولية » و « المدارس الابتدائية » هما وسيلة الحكومة فى تثقيف جمهور الناشئين تثقيفا عاما

غير أننا نجد غموضا فى تعيين اختصاص كل منهما . هل هما نوعان

متعادلان من التعليم ينتهيان لغاية مشتركة أم هما خطوتان متتاليتان تمهد أحداهما للأخرى أم هما نوعان مختلفان شكلا وموضوعا يختص كل منهما بفريق من الامة

لا أستطيع أن أكون فكرة واضحة عن غرض الحكومة من هذا النظام الثنائى فى تعليم صغار الأمة ولكنى أستطيع أن أقول أنها جارت فيه ماهو متبع فى أكثر دول أوروبا كانجلترا والمانيا مثلا فأنك تجد فيها تعليما شعبيا وتعليما للخاصة فتجد المدارس الأولية وهى المدارس العامة التى يغشاها جمهور الشعب والمدارس التى تعد للتعليم الثانوى فالجامعة وهى مفتحة الأبواب للقادرين على دفع مصروفاتها ولقليل من الفقراء الذين يظفرون بالمجانية فيها

ولكن مجرد جرى تلك الأمم على نظام خاص لايبرر أن نأخذ به ونحتذيه . أن هذا النظام فى تلك الشعوب وليد عوامل كثيرة لانظير لها عندنا وهو على حاله نظام رجعى عتيق ينتقده أئمة الاصلاح ويرونه مخالفا للديموقراطية والأنسانية . أساس هذا النظام هناك وجود طبقات اجتماعية متباعدة تحتفظ كل منها بمظاهر وتقاليد خاصة تعتزل من أجلها بقية الطبقات وتتنكب ما يغشونه من البيئات والمجتمعات ولهذا تجد بأمريكا وهى الأمة التى تشربت بروح الديموقراطية الصحيحة وتحررت من قيود التقاليد القديمة وقتلت الفروق بين الناس فى حياتهم العامه قد قضت على هذا النظام ووحدت مدارسها الأولية لسائر ابناء الوطن وجانست بين ما يتعلمه ابن العاطل الحقير وابن صاحب الملايين

كما نجد حملات صادقه ضد النظام الثانى فى المانيا وانجلترا من أمثال الدكتور راين حيث يقول فى أحد تقاريره

« أن المداس الأولية تعدمن وجوه كثيرة نوعامن المدارس خاصا بالفقراء لا يصلح الا لاعطاء أدنى حد ضرورى من العلم والكفاءة لابناء الجمهور ولكن يجب أن نقضى نهائيا على هذا الاعتبار المجرد من الانسانية . يجب أن نطالب بأن يكون هناك نوع واحد من التعليم لسائر الأطفال من كل الطبقات . لتكن تلك المدرسة الواحدة اساسا مشتركا يرتكز عليه كل نظامنا التعليمى لتكون لسانا حيا ينطق بالاتحاد بين سائر أبناء الامة . أن المدارس يجب ألا توسع الفروق بين الناس . وتزيد فى الانقسامات . المدارس كالمعابد واجبها الاول أن تؤلف بين الناس وتقتل روح التنازع وتنشر فكرة الوحدة الوطنية . لكل هذه الاسباب نطالب بمدرسة ابتدائية مشتركة عامة ونصر على أن تلغى تلك المدارس الارستقراطية التى تعد للتعليم الثانوى »

لعل هذا يكفى لبيان ضرورة التحفظ والاحتياط عند نقل أساليب الأمم الأخرى لبلادنا ونحن نختلف عنهم اختلافا تاما فى حياتنا الاجتماعية

ان الشعب المصرى شعب متجانس لا نرى فيه أثرا للانقسام الى طبقات متباعدة وهو بطبيعته شديد الائتلاف كبير التسامح فليس هناك محل لالباسه لباسا أجنبيا عنه يتنافر مع طبيعته وأن التهاون فى انشاء ابنائه على طريقتين ستكون نتيجته بعد زمن كبيرة الخطر وفى مقدورك أن تقيس ما يكون بين الفريقين من الخلف على ما تراه الآن

بين خريجى مدارسنا وخريجى الازهر مثلا ألست ترى بينهما تباينا وتنافرا لا فى الآراء وحدها بل فى المشارب والاذواق والاحساس العام وهى أمور من الضرورى أن تتقارب بين أبناء الامة الى حد كبير حتى تكون للأمة شخصية خاصة تمتاز بها بين الامم

على أن هناك سببا جوهريا يحتم أن تكون المدرسة الأولى مشتركة للجميع وأن يتاح للفقير من الفرص ما يتاح للغنى . ان عمل المدرسة الاولى وهو التثقيف العام من شأنه أن يمكن كل القوى الطبيعية فى الطفل من البروز ومتى تفتحت أكمام تلك الازهار المغلقة ظهر من بعض الأطفال نبوغ وتميز واستعداد للتفوق ومن مصلحة الدولة وواجبها الانسانى أن تمكنهم من متابعة السير ومواصلة التعلم حتى لا تنضمر استعداداتهم الممتازه ولا تدفن تلك الكفاءات الكبيرة . فكيف يكون الوصول الى معرفة امثال هؤلاء اذا قبروا بين جدران المدارس الاولية التى لا تجود عليهم الا بالكفاف من التعليم ولا تهيئ لهم من الفرص ما يجده من أسعده الحظ بأن كان ابنا لرجل قادر على دفع أجور التعليم

يجب أن يكون لنا نوع واحد من المدارس الأولى سواء أكان اسمها ابتدائية أم أولية ويجب أن تكون مفتحة الابواب للجميع على السواء الزاما وبلا أجر . وهذا أقل ما نرتضيه الآن من النصيب المشترك بين ابناء الاغنياء والفقراء وحسب الاغنياء أن ما بعد ذلك من

الابواب ستفتحه أمواجهم بلا كبير عناء بينما لا يتسنى للفقير ولوجها الا اذا كان غنى المواهب والاستعدادات

وليكن برنامج تلك المدارس كاملا شاملا بحيث يتيح لكل العناصر المقومة للطفل حظها من النماء والترعرع وبحيث لا ينتهى هذا الدور من التعلم حتى يتحدد بجلاء ميل كل طفل واستعداده وتميزه

أما فترة الدراسة فلا تفرض على أساس الاعتبارات الاقتصادية أو الحسابية فقط بل على أساس طبيعة الطفل فتحدد بدايتها بالوقت الذى يكون فيه قد شب عن الرقابة المنزلية وتحدد نهايتها بالوقت الذى يصح فيه أن يبدأ التخصص والاستعداد للحياة . واذا راعينا الاعتدال فى ذلك قلنا أن الدراسة الأولية يجب أن تمتد من الخامسة الى الثالثة عشرة على الأقل

وبدهى أنه قبل سن الثالثة عشرة يكون من العبث التفكير فى اعداد الشاب لحرفة أو علم خاص . كما أن افق المعلومات العامة التى تستلزمها الحياة الحديثة يمتد يوما فيوما بحيث نرى أن ثمانى سنوات أقصر زمن كاف لتحصيل القسط الضرورى منها

يلى هذا الدور المشترك دور انتقال يجب أن يكون فى الدولة من الأنظمة المتعددة مايلائمه . بين أيدينا الآن نتاج المدرسة الاولى وقد وضح لنا الى درجة كبيرة طبيعة كل فرد منها واستعداداته وبدا الممتازون والناحية التى يمتاز فيها كل منهم فنحن صانعون بهم .

لنخرج من حسابنا أبناء الاغنياء فهؤلاء لهم الخيرة فيما يسيرون فيه انفسهم

من الطرق وهم ـ أيا كان عددهم ـ أقلية صغيرة لايصح أن تسخر جهود الدولة ومواردها لخدمتهم . سيعنى هؤلاء بأنفسهم ولكن العامة التى تقوم عليها الدولة جديرة بأن يكون لها المحل الأول من عنايتها

سنجد هؤلاء فريقين الفريق الذى يضم كثرتهم وهم العاديون الذين لم يتميزوا ولم يبد منهم استعداد للتفوق فى ناحية من النواحى ولكنهم يصلحون للحياة العادية ويليقون لاحتمال تكاليفها البسيطة لقد تعين مصير هؤلاء فهم عمال الأمة الذين يقومون بفلاحة أرضها والاشتغال فى مصانعها ومتاجرها وسائر اعمالها العادية

والفريق الثانى هم الذين بدا تميزهم واتضح تفوقهم وقويت الآمال فى أن ينتفع بهم فى ناحية خاصة . وستجد هؤلاء على أنواع شتى فمنهم من بدا منه حسن استعداد للصناعة ومنهم من يليق للتجارة أو الزراعة أو العلوم أو الآداب الخ فأما الفريق الأول فريق الكثرة العادية فيجب الا يلقى به فى المجتمع دون أن يسلح بغير المعلومات العامة التى تلقاها فى دور التثقيف العام . يجب أن يهيأ للحياة وينتقل من هذا التعليم العام الى تدريب عملى على العمل الذى سيختاره لنفسه تحت رقابة وارشاد فنيين . يجب أن تكون فى الارياف حقول متعددة لتدريب من سيحترف الزراعة وفى المدن مصانع لتدريب من سيحترف الصناعة ويلحق بمتاجر ومصارف معينة من سيحترفون التجارة ويعطى كل اولئك فى حرفهم دروسا ارشادية عملية تجعلهم اقدر من العامل الفطرى على كسب العيش فى هذه الحياة التى يشتد فيها الكفاح وتنازع البقاء يوما فيوما

وأما الفريق الثانى فيرقى بهم الى مدرسة تتناول تثقيفهم على اسلوب أعلى بحيث تدور كل مدرسة حول مركز معين . وبعبارة ثانية نود أن تكون مدارسنا الثانوية متعددة الانواع فمنها المدارس العلمية ومنها الصناعية والتجارية والزراعية ولا نقصد بتخصيص اسم لكل منها أن تكون مدارس للحذق والتخصص فى نوع من هذه الانواع بحيث لايتسع وقت طلبتها لما يزيد فى انارة اذهانهم وتوسيع دائرة معلوماتهم العامة بل نود أن تكون مزدوجة الفائدة فهى من ناحية تعد للحياة ولكنها من ناحية أخرى تعد للدور الذى يليها دور التدقيق والحذق والنبوغ فى باب من ابواب النشاط العلمى أو العملى نود أن يكون الفرق بين عمل المدارس الاولية والثانوية أن المجهود المشتت الموزع على نواح كثيرة فى الدور الأول يتجمع فى دائرة اضيق من الأولى وأكثر ملاءمة للانتاج من جانب الطالب ولكنها تكون من الاتساع بحيث تمكن الملكات العامة من النمو وترفع المستوى الاجتماعى لطلبتها وتعدهم اعدادا أكبر للحياة ولدور التخصص الأخير فهى على هذا يجب أن تكون تامة فى ذاتها ولكنها تكون ايضا سلما يصعد عليه الى مافوقها كشأن المدارس الأولية تماما

ونتاج هذه المدارس سينزل أكثره الى الحياة ولكن الفريق الذى اظهر امتيازا وتفوقا غير عادى يجب أن يجد مجالا للحذق والنبوغ فيما تبين صلاحه له . يجب أن تكون هناك شعب للتعليم العالى غنية فى النوع والكم تكفل لتلك الكفاءات الممتازة التدقيق والتخصص

في كل باب من الابواب . وهكذا بينما كانت دائرة العمل فى المدارس الأولية كبيرة الاتساع ضاقت وحصر المجهود فى دائرة اصغر فى المدارس الوسطى واخيرا يتركز الجهد فى المدارس العالية فى نقطة معينة

وليس من غرضنا فى هذه المجالة أن ندخل فى التفاصيل فتعدد انواع المدارس ونسمى مختلف الشعب ونبسط نقط المناهج وانما غرضنا رسم خطة أجمالية تتفق مع وظيفة الدولة التعليمية

وأن أكن افلحت فى اعطاء صورة جلية عن ذلك فأنى أظن أنه يتضح بعد ما بين انظمتنا وبينها وأن كان لنا مثل اسمائها ولعل أظهر نقط الضعف فى نظامنا القومى للتعليم اضطراب الخطوة الأولى ونقص العناية بها

أن دعامة كل انظمة التعليم هى المدرسة الاولى المدرسة العامة التى ستكون فى المستقبل المعهد الأول والاخير لأغلبية الشعب ففى هذه المدرسة يجب أن نرى بذور الاستعداد لتحقيق آمالنا القومية وسد حاجاتنا العامة. يجب أن يكون لها النصيب الأوفر من العناية فى اعداد برامجها واختيار معلميها ورقابة سؤونها يجب أن توحد تلك الخطوة ويستعاض عن (المدارس الاولية والمدارس الابتدائية) الحالية مدرسة واحدة اوسع مدى من كليتهما وابعد مقصدا. يجب أن يكون النظام المدرسى العام كفيلا بتوجيه رأس مال الدولة وهو شبابها فيما يكون

فيه أكثر اثمارا وانتاجا وذلك بكشف استعداد كل منهم وتسييره فيما هو عليه اقدر وله انفع

واخيرا يجب أن تكون سياسة التعليم عندنا بعيدة النظر ثابتة الخطوات بحيث تقصد الى غرض واضح جلى فى هدوء وحزم فتعيد النظر فى مدارسنا الحاضرة وتحدد لكل منها منزلته وتختار له من المناهج والوسائل التنفيذية ماهو أسرع اتصالا الى غايته المرجوة منه ثم تكون مواردها وجهودها موزعة بين هذه الابواب جميعها بنسبة خطورتها وفائدة البلاد منها والله الموفق الى سواء السبيل ؟

(محمد عبد الواحد خلاف)
مفتش التعليم بالجمعية الخيرية الاسلامية

أطوار النمو

لقد عنى العلماء فى العصور الحديثة بدراسة الاطفال وطرق نموهم ومميزاتهم التى يمتازون بها فى أطوارهم المختلفة وألفوا فى ذلك الكتب المسطورة ووصفوا فيها النشوء الجسمى والعقلى والخلقى لبعض الأفراد واستنتجوا القواعد واستنبطوا القوانين العامة وعدوا ذلك فرعا من التربية وأرشدوا المدرسين الى شأنه وبينوا أثره فى التدريس وطرقه ومناهجه فأتى ذلك بكثير من الفائدة وعاد على الأطفال والمدرسين والمدارس بالخير الجزيل